إمام الحرمين الجويني
وعلم أصول الدين

حياة إمام الحرمين:

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيُّوية الجويني ، النيسابوري ، ضياء الدين ، أبو المعالي ، إمام الحرمين ، الشافعي .

ولد بنيسابور في الثامن عشر من المحرم سنة ٤١٩هـ ، الموافق للثاني والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٠٢٨م ، وتوفي سنة ٤٧٨هـ عن عمر يناهز التاسعة والخمسين سنة .

نشأ في نيسابور وترعرع فيها ، وطلب العلم فيها ، وإليها ينسب ، وهي من أعمال خراسان ، وأما نسبته إلى جوين فإنها منحدرة له من والده الشيخ أبي محمد الجويني الذي ولد فيها ، وجوين من أعمال نيسابور ، ويذكر أكثر علماء التراجم والرجال أن الجويني عربي الأصل ، وهو من قبيلة بني سِنْبِس ، بطن من طيء ، وتربى إمام الحرمين على يد والديه ، ورضع لبان العلم والأدب في هذه الأسرة العريقة في العلم ، وسار على منهج القرآن والسنة ، وسلك طريق التربية الإسلامية القويمة ، وحفظ القرآن الكريم ، وتفقه في صباه على والديه ، واشتغل به مدة وسمع الحديث الشريف من علماء عصره ، واهتم بعلم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وجمع الفقه ودرس النحو والأدب والفلسفة وعلم الخلاف

والجدل والمناظرة وغيرها ، حتى قال فيه أستاذه أبو الحسن المجاشعي النحوي : ما رأيت عاشقاً للعلم في أي فن كان مثل هذا الإمام ، فإنه يطلب العلم للعلم» ، وتولى التدريس مكان والده ، ثم خرج من نيسابور عالماً ومتعلماً ، وقصد العراق والحجاز ، وحج ثم جاور في الحرمين أربع سنوات يؤم الناس ويعملهم ويناظر العلماء حتى أطلق عليه إمام الحرمين ، ثم عاد إلى بلده ، وسلم له المنبر والمحراب والوعظ والتدريس وبنيت له نظامية نيسابور فاستلم التدريس فيها ، وبقي كذلك ثلاثين سنة حتى لبى نداء ربه ، وقد صنف الكتب الكثيرة التي تسير بها الركبان ، وقال ابن السبكي فيه : «ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه ، وأكثرهم تحقيقاً ، بل الكل من بحره يغترفون ، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً» وأهم كتبه «نهاية المطلب» في الفقه ، و«البرهان في أصول الفقه» وغيرها[١] .

تعـريـف علـم أصـول الـديــن :

عرف السيوطي علم أصول الدين فقال : «هو علم يبحث فيه عما يجب اعتقاده» ، وقال : «إنه أشرف العلوم مطلقاً ، لأنه يبحث عما يتوقف عليه صحة الإيمان وتتماته»[٢] ، فهو العلم الذي يبين حقيقة الإيمان وأركانه ، مما جاء به الشرع في الكتاب والسنة ، وقد حدد رسول الله ﷺ الإيمان ـ فيما رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فقال : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» ، ونزل القرآن الكريم داعياً إلى الإيمان ، ومبيناً حقيقته وأركانه ، في آيات كثيرة ، وسور متعددة ، وكان أكثر ما نزل في مكة

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكي ٥/ ١٦٥ ، العقد الثمين ٥/ ٥٧ ، وفيات الأعيان ١/ ٢٤١ ، المنتظم ٩/ ١٨ ، تبيين كذب المفتري ص ٢٧٨ .

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية ، للسيوطي ص ٣ ، ٤ .

المكرمة خلال السنوات العشر الأولى من الدعوة يؤكد على أهمية الإيمان وضرورته ، ويزيل الشبهات والأوهام التي تعلق به ، ويناقش الكفار والمشركين في عقيدتهم ودينهم ، لينير أمامهم طريق النور والهداية ، ويفند مزاعمهم الضالة ، ويقدم الحجج والبراهين العقلية والواقعية للدين الحق ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، كما يلقنهم رسول الله ﷺ الدروس العملية في الدين والإيمان ، واستمر الأمر كذلك في عهد الصحابة ، وتميز هذا العلم باسم التفقه في الدين وفي عهد التابعين سمى الإمام أبو حنيفة كتابه في الدين والإيمان باسم الفقه الأكبر ، ثم أخذ هذا العلم اسماً جديداً وهو «علم أصول الدين» للدلالة على مكانته في الدين ، باعتباره يمثل أساس الدين وقواعده ، كما عرف بعلم التوحيد ، باعتباره يقوم على أهم مبدأ وهو توحيد الله تعالى ، ولما انتشرت الدعوة الإسلامية ، وتوسعت رقعة الإسلام ، وتمازجت الثقافة الإسلامية بالفلسفات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، واشتبكت العقائد والأفكار والأديان ، استعان العلماء المسلمون بالبراهين العقلية والحجج المنطقية والنظريات الفلسفية على إثبات العقيدة الإسلامية ، وتزييف العقائد الأخرى ، والرد على الفلسفة والأديان الباطلة ، فسمي علم أصول الدين بعلم الكلام ، وعرفوه بأنه «علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها»[١] ، وظهرت في ذلك العصر الآراء والمذاهب والفرق الاعتقادية وسار على هذا المنهج أكثر العلماء ، بينما اعتمد بعض العلماء على النصوص الشرعية ، واقتصر على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة ، وتوقف فيما وراء ذلك ، وفي المقابل اكتفى بعض العلماء على الأدلة العقلية ، ونقل أقوال الفلاسفة وترجمتها ، وعرض الفلسفات

---

(١) انظر: مفتاح السعادة ٢/ ١٥٠ ، كشف الظنون ٢/ ٣٢٦ ، ضحى الإسلام ٣/ ١ ، ٧ وما بعدها.

المتنوعة لمقارنتها بأصول الدين الإسلامي ، ولقب هذا الفريق الأخير خطأ بفلاسفة الإسلام ، أو بالفلاسفة المسلمين ، والصواب أن يطلق هذا اللقب على علماء الفريق الأول والثاني فقط ممن عرفوا بأهل السنة والجماعة ، وتمثلوا بالأشعرية والماتريدية وأهل السلف ، واستمر الأمر على هذا المنوال أكثر من عشرة قرون ، وفي هذا العصر يبحث علم أصول الدين باسم «العقيدة الإسلامية» أو «الفكر الإسلامي» أو«علم العقيدة» ، ونخلص من ذلك أن الفقه الأكبر ، وأصول الدين وعلم الكلام ، وعلم العقيدة أسماء مترادفة ، مضمونها واحد ، وهدفها واحد ، ولكنها تختلف في الصورة ، والأساليب والطرق في عرض نفس الموضوعات بحسب العصر واختلاف الزمان.

المبحث الأول: في تحصيل إمام الحرمين لعلم أصول الدين

كان العصر العباسي مشحوناً بالعلوم والثقافات وازدهار الحضارة ، وكان المجتمع يموج بالمذاهب الاعتقادية والفرق الدينية ، وكان الصراع بين الآراء حاداً وشديداً ، ولم يقتصر على مواجهة الأديان الأخرى والأفكار الباطلة ، والنزعات الضالة ، داخلياً وخارجياً ، وإنما امتدّ هذا الصراع إلى الصدام القاسي بين أتباع المذاهب والفرق ، وسلط كثير من أئمة المذاهب الكلامية الأسنة نحو مخالفيهم من بقية المذاهب على المستوى العلمي والنظري والموضوعي ، وقد يصل أحياناً إلى مستوى الفتنة ، والإكراه على الرأي ، والاستعانة بالقوة الذاتية ، أو السلطة الرسمية ، وكان الجدال والمناظرة بين العلماء على أشده ، وكان كل فريق يسعى لجمع الحجج والأدلة والبراهين للتدليل على صحة قوله ، وإبطال حجج الآخرين ، والرد على اعتراضاتهم ، ومن هنا نشط العلماء في الدراسة والتأليف ، وخلفوا لنا ثروة علمية ضخمة لا يمكن حصرها.

ونشأ إمام الحرمين الجويني في هذا الجو المضطرم ، كما نشأ في نيسابور ، وكانت أكبر مراكز الثقافة بخراسان ، وكانت مجمع العلماء والفضلاء ، وملتقى الطلاب ، ومهد المدارس ، يقول المقريزي : «إن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور»[1] ، ويصفها ياقوت الحموي بأنها : «معدن الفضلاء ، ومنبت العلماء» ، ويقول : «وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى»[2] ، وكان يحيط بها عدد من المدن القريبة التي اشتهرت بالعلم والعلماء مثل مرو وسرخس.

ونشأ إمام الحرمين الجويني أيضاً في أسرة علم وفضل كابراً عن كابر ، وترعرع في أحضان الكتب والمؤلفات ، وفي محراب العبادة والتقوى والورع الذي اشتهر به والده ، وكان إمام الحرمين متمتعاً بالمواهب الإلهية الواسعة ، والتفتح العقلي الوقاد ، وسعة الأفق والفكر ، والذكر الحاد ، والفهم العلمي.

ومع توفر هذه العناصر والظروف اتجه إمام الحرمين إلى طلب العلم وتحصيله من كل جانب فحفظ القرآن الكريم عن والده ، وأتى على تفسيره الكبير لفهم كتاب الله تعالى ، وتدبر آياته ، وتتبع العلوم التي يحتويها ، والتعمق في أحكام القرآن الكريم ، ودلالات الألفاظ والمعاني ، واستمر على حضور مجالس القرآن عند الكبر ، فكان يبدأ يومه بالذهاب إلى درس القرآن في مسجد الشيخ أبي عبد الله الخبازي قبل الاشتغال بالتدريس ، ودرس الحديث وبقية العلوم الشرعية ، مما لا مجال لتفصيله ، وإنما نكتفي بتحصيله لعلم أصول الدين.

انصرف إمام الحرمين الجويني منذ نعومة أظفاره إلى دراسة علم

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٢.

(٢) معجم البلدان ٨/ ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، عن كبار الإعلام بمناقب الإسلام ص ٦.

أصول الدين وأخذ في تعلمه طوال شبابه ، وواظب عليه حتى أتقنه وتفوق فيه ، ولما توفي أبوه ، وأقام مكانه للتدريس ، وهو دون العشرين من عمره ، كان يقوم بالتدريس ثم يخرج بعده إلى مدرسة الإمام البيهقي بنيسابور لتحصيل علم أصول الدين على الأستاذ أبي القاسم الإسكاف الإسفراييني ، وظل يواظب حضور مجلسه إلى أن توفي الأستاذ سنة ٤٥٢هـ ، وكان إمام الحرمين يقول: «كتبت عليه في الأصول أجزاء معدودة ، وطالعت بنفسي مئة مجلدة»[١] وكان إمام الحرمين يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ من علم أصول الدين ، وكان يقول: «ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر [الباقلاني] وحده اثني عشر ألف ورقة»[٢] ، وقد أتقن إمام الحرمين علم الكلام وأصول الدين ، وساعده على ذلك حفظه للقرآن الكريم ، وتدبره لآياته ومعانيه ، وقدرته على المناظرة والمحاجة والمجادلة ، وتفتح عقله على الأدلة والحجج والبراهين ، حتى فاق فيه جميع الأقران ، وتعمق في أغواره ، وأخذ عن كبار علماء عصره ، وصار أعلم الناس في زمانه بأصول الدين وعلم الكلام.

وكان الدافع لدراسة علم أصول الدين أصلاً ، وتأكيده بدراسة الفلسفات الأخرى والعلوم العقلية المتنوعة ، هو الحرص على الإسلام ، والدعوة إليه ، ورد شبهات الأعداء عنه ، وتفنيد حجج الطاعنين به من الكفار والمشركين خارج الدولة الإسلامية ، ومن المنافقين والملحدين الذي انضووا تحت لواء المسلمين ، وتستروا بالباطنية وغيرها من الفرق الضالة ، للدس على الإسلام ، والتشكيك فيه ، وإثارة الشبه بين المسلمين ، وزرع البلبلة في العقيدة ، ومحاولة دس الأفكار الدخيلة

---

(١) انظر: مرآة الجنان ٣/ ١٢٥.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨٥.

والباطلة بين أفراد المسلمين وفرقهم ومذاهبهم ، والاستعانة بفلسفة اليونان ، ومنطق الرومان ، وأوهام المجوس والهنود ، وذلك بعد ترجمة ثقافات هؤلاء القوم إلى العربية ، حتى أمر المهدي في منتصف القرن الثاني الهجري علماء الجدل والكلام بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأهل الزيغ ، فنهض العلماء يدرسون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، ويتعمقون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعرفون أسرارها ليستخدموها في الرد على أصحابها ، وكشف زيفها ، ولجؤوا إلى أسلوب المناطقة ، واعتمدوا على الحجج المنطقية والأدلة العقلية ، وكان أول من حمل هذا اللواء المعتزلة الذين حققوا انتصارات حاسمة في وجه الفرق المنحرفة ، والتيارات الوافدة ، والآراء الدخيلة الضالة ، وكانوا يمجدون العقل ، ويرفعونه مكاناً عالياً لمواجهة الأعداء ، وإفحامهم ، لكنهم اعتمدوا على نفس السلاح العقلي في فهم القرآن ، وفي تجديد مفاهيم الإسلام ، مما أوقعهم في خبط شديد ، وانحراف كبير ، ثم سلطوا سلاحهم على نفس المسلمين ، واستطاعوا أن يقنعوا بعض الخلفاء والحكام بآرائهم ، لقوة حجتهم العقلية ، وحاولوا حمل الناس بالقوة والسلطة والإكراه عليها ، وظهرت الفتنة بسببهم في خلافة المأمون والمعتصم والواثق ، وثبت العلماء والأئمة أمام هذا التيار ، وأظهر الإمام أحمد بن حنبل صموداً رائعاً في الثبات على الحق ، حتى رفع الخليفة المتوكل هذا الامتحان القسري ، ومنع المعتزلة من المناظرات والمجادلات ، لكن الصراع الفكري استمر على أشده ، مما دفع حماة الإسلام ، وعلماء الدين ، الذين يغارون على أمتهم ، ويحملون لواء الدعوة ، ويشعرون بثقل المسؤولية ، ويحسون بالأمانة الملقاة على عاتقهم ، أن يشمروا عن سواعدهم لتفنيد آراء المعتزلة ، والدفاع عن العقيدة والشريعة ، ونقض الفلسفات المادية ، والأوهام الوثنية ، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكشف الغطاء أمام

المسلمين بالتدريس والتعليم والتوجيه ، والدعوة والتأليف ، واعتمدوا على الحجج العقلية مع الأدلة النقلية للرد على أصحاب الأهوال والضلال ، ولإنقاذ المسلمين من سعير المعتزلة الذي صبوه عليهم ، وظهر في هذا الخصوص مذهب الأشعرية والماتريدية لبيان منهج الإسلام في العقيدة وأصول الدين بالأدلة العقلية والنقلية ، بالإضافة إلى العلماء الذين حافظوا على منهج السلف بالاقتصار على الحجج النقلية والوقوف عند النصوص اعتقاداً وسلوكاً ودعوة ، ومن خلف هؤلاء وقف الفقهاء والعلماء والدعاة ، يردون كيد الأعداء في نحورهم ، ويحملون راية الدعوة الإسلامية ، ويبلغونها للناس ، وينافحون عن الدين ، مما أدى إلى الحفاظ على العقيدة والشريعة صافية نقية من كل شائبة تطبيقاً لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك»(١) ، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس»(٢).

وهكذا صارت دراسة أصول الدين أو علم الكلام وتدريسه والتأليف فيه السبيل القويم أمام المسلمين ، فانكب العلماء على دراسته وتدريسه والتصنيف فيه ، وهو ما سلكه إمام الحرمين الجويني رحمه الله ، فدرس أصول الدين بتوسع ، وتعمق في جوانبه ، ثم واصل البحث بنفسه ، وطالع كتب الفلاسفة وعلماء الكلام والمنطق ، وحصل المعلومات الكثيرة ، وهضمها بشكل كامل ، ثم صنف عدة كتب في أصول الدين

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ثوبان مرفوعاً (صحيح مسلم ١٣/ ١٥ رقم ١٩٢٠ ، الفتح الكبير ٣/ ٣٢١).

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعاً (صحيح البخاري ٣/ ١٣٣١ رقم ٣٤٤١ ، ٣٤٤٢ ، صحيح بشرح النووي ٣/ ٦٦ رقم ١٩٢٣ ، الفتح الكبير ٣/ ٣٢١ ، مسند أحمد ٤/ ٩٧ ، ١٠٤ ، ٣٦٩ ، ٤٢٩).

والعقيدة وعلم الكلام والتوحيد ، وهذه أسماء واحدة في الحقيقة والجوهر ، وفي الهدف والغاية ، كما سبق ، ولكنها تختلف في العرض والأسلوب ، وهو ما صرح به إمام الحرمين في مقدمة كتابه «الإرشاد» فقال: «وصادفنا المعتقدات عَرِيّة عن قواطع البرهان ، رأينا أن نسلك مسلكاً يشتمل على الأدلة القطعية ، والقضايا العقلية»[1] ، ويريد بذلك البراهين القاطعة بحسب عصره التي تعتمد على العقل والمنطق والفلسفة . وهي المطالب العقلية التي تخص أهل ذلك العصر.

وقد حظيت كتب إمام الحرمين في أصول الدين بالإقبال عليها ، والرجوع إليها من العلماء ، ومعظم دور العلم والمدارس ، وتناولها الكثيرون بالعناية والرعاية والشرح والاختصار ، وفي هذا العصر تفتحت عليها الأنظار ، وتم طبع أربعة كتب منها ، مع التحقيق والدراسة وهي: لمع الأدلة ، الإرشاد ، الشامل ، العقيدة النظامية ، كما سنفصله ، وبقي سائرها مخطوطاً لم ير النور ، وقد ضاع بعضها ، أو لم يتم العثور عليه حتى الآن.

كتب إمام الحرمين في أصول الدين:

ألف إمام الحرمين عدة كتب في العقيدة وأصول الدين وعلم الكلام ، وتدرج في تصنيف هذه الكتب ، فكتب بعض كتبه في مطلع حياته ، وأثناء معترك النشاط والدعوة والتدريس والمناظرة ، وكان يتبع المدرسة الأشعرية في أغلب ما كتب ، وكلما نضج عقله ، واتسع فكره ، وتوسعت مداركه ، وازدادت معارفه ، كان يسطر ذلك في مصنفاته ، ولعله بدأ باختصار كتاب الإرشاد للباقلاني ، ثم ألف رسالته المختصرة «لمع الأدلة» ، ثم توسع بذلك وشرحها في كتابه الكبير «الشامل» الذي

(١) الإرشاد ص ١.

يعتبر موسوعة علمية في علم أصول الدين ، وفي آخر حياته كتب «العقيدة النظامية» التي تمثل آخر الآراء التي استقر رأيه عليها ، وأن ما ورد فيها ينسخ ما ورد في كتابيه السابقين «الشامل» و«الإرشاد» مما صرح به فيهما ، كرأيه في الصفات ، أو مما فهم خطأ عنه في مسألة عدم علم الله تعالى بالجزئيات ، ثم التصريح بعلم الله تعالى في ذلك ، وتعتبر بعض هذه الكتب مختصراً وبعضها شرحاً ، لمراعاة المستويات المختلفة فيها ، كما أن بعض كتبه تتناول جميع مسائل علم الكلام وأصول الدين ، بينما تضمن بعضها الآخر جانباً معيناً من العقيدة أو أصول الدين ، مثل «مدارك العقول» و«أسماء الله الحسنى» و«شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل» و«الكرامات» ، وسوف نقدم نبذة مختصرة عن كل كتاب.

١ ـ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة :

وهذا الكتاب عبارة عن رسالة مختصرة في العقيدة الإسلامية التي يؤمن بها المسلم ، عرضها إمام الحرمين لبيان حقيقة المذهب السني في أصول الدين ، مدعمة بالأدلة الموجزة ، والبراهين العقلية المقتضبة ، كتبها في الغالب في أول حياته تلبية لدعوة أصحابه وتلاميذه وطلابه الذين كانوا يحيطون به ، ويجلسون إليه ، واقتصر على مسائل العقيدة التي رأها أجدر من غيرها بالذكر ، ويشتد حولها الخلاف بين المتكلمين والمعتزلة وغيرهم.

وبدأ الرسالة بالكلام عن العالم وحدوثه للوصول إلى وجود الله تعالى وقدمه ، ثم بين صفات الله تعالى الواجبة والجائزة ، ومنها صفة الكلام ، فقال: «فصل: وكلام الله تعالى مقروء بألسنة القراء ، محفوظ بحفظ الحفظة ، مكتوب بالمصاحف على الحقيقة ، والقراءات أصوات القارئين ونغماتهم» (ص ٩٢) ، وهذه المسألة أهم مسائل علم الكلام التي أدت

إلى فتنة المأمون في «خلق القرآن»، ثم انتقل للحديث عن الرسل والنبوات والمعجزات ، وأن المعجزة تثبت صدق مدعي النبوة ، وختم الرسالة بفصل عن إمامة المسلمين ، وأن أمير المؤمنين بعد النبي ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ، وأن النبي ﷺ لم ينص على إمامة أحد بعده ، إذ لو نص على ذلك لظهر وانتشر ، ثم قال: «والخلفاء الراشدون لما ترتبوا في الإمامة فالظاهر ترتيبهم في الفضيلة كذلك» (ص١١٦).

وهذا الكتاب نشرته المؤسسة المصرية العامة بالقاهرة عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م عن نسخة خطية بدار الكتب المصرية وأخرى من مكتبة برلين ، بتحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود ، مدرسة الفلسفة بكلية البنات بجامعة عين شمس ، ومراجعة الدكتور محمود الخضيري ، مع تقديم عن سيرة إمام الحرمين ، ومصنفاته ، ومكانته ، وتعليق على التحقيق ، وفهارس شاملة له.

وللكتاب شروح كثيرة منها: «شرح لمع الأدلة» لأبي محمد عبد الله شرف الدين بن محمد بن علي الفهري ، الشهير بابن التلمساني ، المتوفى سنة ٦٤٤هـ ، ويوجد لهذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ونسخة أخرى بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، ولها فيلم بمعهد المخطوطات العربية[١].

٢ ـ الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد:

نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي لوسياني عام ١٩٣٠م بخط مغربي معتمداً على ثلاث نسخ خطية من الجزائر وتونس وباريس ، مع ترجمة بالفرنسية ، ثم حققه الدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ علي عبد

---

(١) انظر مقدمة لمع الأدلة ، للجويني ص ٨٧.

المنعم عبد الحميد على ثلاث نسخ أخرى بدار الكتب المصرية والمكتبة الأحمدية بحلب ، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م وبين الدكتور محمد يوسف موسى القصد من الكتاب بأنه بيان العقائد الدينية والاستدلال لها ، ثم الدفاع عنها ، ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب المخالفين للدين ، وذلك «في أسلوب قوي واضح ومركز ، من غير تعقيد ، فليس بالمطول الذي يدعو للملل والسآمة ولا بالموجز في مبالغة ، وهو إلى هذا فيه من أصالة الرأي ، واستقلال الفكر ما يجعله أحق بأن يدرس رسمياً في الأزهر من الكتب التي بيد الطلاب» (صفحة ص من المقدمة).

وبيَّن إمام الحرمين في مقدمته البواعث لتأليف الكتاب ، وهي الاختصار ، والاعتماد على الأدلة النقلية والعقلية ، وقواطع البرهان ، ورتب الكتاب على أبواب وفصول تغطي موضوعات علم أصول الدين ، مع مناقشة الشبه ، والرد على المعتزلة وبقية الفرق المنحرفة ، ومهَّد لذلك ببعض الفصول عن أحكام النظر ووجوبه وحقيقته وحصول العلم به ، وشرح المصطلحات الكلامية التي يستعملها ، ثم بدأ باستعراض مسائل علم الكلام ، كما جاء في كتابه «لمع الأدلة» فعرض إثبات حدوث العالم ، للتدرج بالقارىء إلى وجود المحدث ، وهو الله تعالى ، وشرح صفات الله تعالى ، ورد على دعاة التجسيم والتشبيه ، وناقش أقوال النصارى ، وتعرض لمسألة الاستواء على العرش ، وفسره بمعنى القهر والغلبة والعلو ، كما تعرض بالتفصيل لمسألة كلام الله تعالى ، وشرح كلام النفس ، ورد على الجهمية ، وناقش أقوال المعتزلة ، وشرح معاني أسماء الله الحسنى ، وذكر بعض الصفات التي وردت في القرآن الكريم كاليد والعين والوجه ، واختار قول المتأخرين أن الصحيح حملها على التأويل بالقدرة والبصر والوجود ، وناقش أقوال المخالفين ، واحتج لآرائه بالنقل والعقل ، وكشف آراء القدرية وردها وذم القائلين بها ،

واستطرد لمسألة التكليف بما لا يطاق ، والتحسين والتقبيح ، والصلاح والأصلح على الله تعالى ، وبين إسراف المعتزلة في تمجيد العقل وتقديسه ، ومحاولته تطويع النصوص له ، مما يأباه الشرع ومنهج السنة والسلف.

ثم تناول إثبات النبوة وتأييدها بالمعجزات ، وفصل القول في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ومعجزاته ووجوه إعجاز القرآن ، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه «جرى رسم المتكلمين بذكر هذا الباب في الأصول وهو بمجال الفقهاء أجدر» ، ثم تحدث عن السمعيات والآجال والرزق والإعادة بعد الموت وأحوال الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب والشفاعة والتوبة ، وانتهى إلى القول في الإمامة ، كما سبق في «لمع الأدلة» مع التفصيل ، ومحذراً من الطعن بالصحابة والافتراء عليهم.

وقد تناول العلماء هذا الكتاب بالشرح ، فتعددت شروحه ، منها«شرح الإرشاد» لتلمذ إمام الحرمين سليمان الأنصاري (٥١٢هـ) ، ويوجد منه نسخة بخزانة القرويين بفاس ، ومنها «نكت الإرشاد في الاعتقاد» لأبي إسحاق المعروف بابن المرأة ، في خمسة مجلدات ، ويوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، ومنها «الإسعاد على الإرشاد» لأبي فارس عبد العزيز بن إبراهيم ، ويوجد منه نسختان مخطوطتان بفاس ، وشرح أبي بكر بن ميمون بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، ومنها «المقترح» لعز الدين ابن المظفر الشافعي ، ويوجد منه نسخة مخطوطة بالجزائر[1].

---

(١) انظر: كشف الظنون ١/٨٦ ، الكافية في الجدل ص ١٩ ، الإرشاد صفحة ق ، الجويني ص ٨٠.

٣ ـ الشامل في أصول الدين :

وهذا أكبر كتاب في أصول الدين لإمام الحرمين ، وقد وصفه حاجي خليفة بأنه يتكون من «خمس مجلدات» ووصفه المعاصرون بأنه «يعد ـ بحق ـ دائرة معارف كبرى ، طرق فيها الجويني شتى فروع العلم والمعرفة»[١] ، ويتجه الظن إلى أن هذا الكتاب هو شرح للكتاب السابق «لمع الأدلة» لأنه عرض نفس الموضوعات بتوسع وإفاضة وتفصيل وأدلة ومناقشة مستفيضة لمسائل علم الكلام ، واستعراض الآراء إما صراحة وإما إشارة ، مع الرد على المخالفين ، وقد لقي هذا الكتاب قبولاً عظيماً من العلماء ، وأقبل عليه الأشعرية وغيرهم ، وأصبح معتمداً في الرجوع إليه ، وكان فخر الدين الرازي يحفظه عن ظهر غيب[٢] .

وهذا الكتاب العظيم لم يظهر للنور حتى اليوم بشكل كامل ، ويظن أن أكثره قد ضاع مع مافقد من تراث الإسلام والمسلمين ، أو أنه لا يزال في مكتبات مجهولة لم تعرف حتى الآن ، وقد بادر المستشرق الألماني هلموت كلوبفر إلى نشر جزء منه عن نسخة ناقصة بإستانبول ، وقال إنه اكتشفه بعدما ظل مجهولاً مدة قرون طويلة ، وطبع هذا الجزء طبعة غير دقيقة سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

ثم قام الدكتور علي سامي النشار والأستاذ فيصل عُون والسيدة سهير محمد مختار بتحقيق الجزء الأول من الشامل ، وقدموا له مقدمة مطولة استهلوها عن المدرسة الأشعرية في العقيدة ، وقالوا «إن ظهور الأشعرية أعظم حادثة فكرية في تاريخ الفكر الإسلامي» (ص٥) ثم عرضوا للبواكير الأولى لحركة العقلية الإسلامية والمذاهب الكلامية ونشوء الفرق ، وتمَّ نشر الكتاب عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م بالإسكندرية .

---

(١) انظر : كشف الظنون ٢/ ٤٥ ، الشامل ص ٧٩ .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٨١ ، ٨٦ .

ويحتوي الشامل على جميع بحوث أصول الدين ، لكن الجزء الأول المطبوع يقتصر على ثلاثة كتب وهي «كتاب النظر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب العلل» مع نقص الورقات الأولى من أوله.

ويبحث في كتاب التوحيد عن الواحد وحقيقته ومعانيه ، ليصل إلى فكرة التوحيد في الألوهية موضحاً التوحيد الحق ، ومميزاً له عما سواه ، مع التعرض للتجسيم الذي يتنافى مع العقيدة والواقع ، ورد على مطاعن الخصوم ، وشرح آراء النظام وغيره من المعتزلة وآراء الكرامية وغيرهم من الفرق المنحرفة، وكشف مزاعمهم، ورد أباطيلهم، وفند حججهم ، ثم عرض آراء النصارى في فهم الألوهية ، وذكر آراء فرقهم المختلفة من النسطورية واليعقوبية والملكانية وغيرهم في الاتحاد ، واللاهوت والناسوت والأقانيم وصلب المسح ، وناقشهم في كل ذلك ، مبيناً الحق والصواب ، معتمداً على نصوص كثيرة من كتابهم الإنجيل» ، وأنهم فهموا بعض كلماته خطأ ، وعقب على كل ذلك بباب يتضمن صفات الله تعالى.

وإن موضوعات «الشامل» تتفق مع موضوعات ومسائل «الإرشاد» مع التوسع الكبير ، والأدلة والمناقشة ، ويظهر ذلك بشكل جلي في الكتب الثلاثة السابقة التي تم العثور عليها ، وتم تحقيقها ونشرها.

وللشامل مختصر كبير ومفيد بعنوان «الكامل في اختصار الشامل» لابن الأمير أو ابن أمير الحج ، المتوفى في القرن الثامن الهجري ، ويوجد لهذا المختصر نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، وهي بخط المؤلف ، وقد وعد محققو كتاب «الشامل» أن يقوموا بتحقيق ونشر هذا المختصر.

٤ ـ العقيدة النظامية:

وهذا الكتاب جزء من مصنف كبير لإمام الحرمين ، اسمه «الرسالة

النظامية في الأركان الإسلامية» ويعرف بالنظامي ، ويحتوي على العقيدة وأحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج، لكن بعض النساخ أفرد قسم العقيدة عن باقي الأقسام ، وسموه «العقيدة النظامية» ، وباقي الكتاب في أحكام الفقه على المذهب الشافعي بالخصوص ، أما قسم العقيدة فعام لجميع المسلمين ، وهذا ما صرح به القاضي أبو بكر بن العربي في نسخته المخطوطة التي رواها عن الغزالي عن المؤلف نفسه ، وتمَّ نشر الكتاب عليها مع نسخة أخرى.

وكتاب العقيدة النظامية مطبوع ثلاث مرات ، الأولى صححها وعلق عليها صاحب الفضيلة العلامة الأستاذ محمد زاهد الكوثري ، ونشرها صاحب مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م ، ثم قام المستشرق الألماني كلوبفر بنشر هذا الكتاب بمطابع شركة الإعلانات بمصر مع ترجمة ألمانية له ، وأخيراً صدرت الطبعة الثالثة بتحقيق الدكتور أحمد السقا ، بمكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ويقع الكتاب في طبعته الأولى مع مقدمته وفهرسه في ٧١ صفحة ، بين الشيخ الكوثري رحمه الله في المقدمة فضل علم أصول الدين أو علم الكلام ، وبين شرفه وجدواه ، لأن معلمه يتعلق بالإيمان واليقين ، وصون عقائد المسلمين من الشكوك ، وحدد منهج السلف فيه «بالاقتصاد في المعقول والاقتصار على ما في الكتاب والسنة من الأدلة» وجرياً مع الزمن رد العلماء على أهل الأهواء «بطرق عقلية يعترفون بها ، ويخضعون لأحكامها» (ص٣) ، وهو ما فعله الخلف في هذا العلم ، ثم ذكر الكوثري مكانة إمام الحرمين في هذا المضمار ، وأن له القدح المعلى فيه ، وأن مؤلفاته همزة وصل بين منهجي السلف والخلف.

وهذا الكتاب مختصر وجيز في بيان عقيدة الإسلام والمسلمين ، بأسلوب فريد ، مع جودة في البيان ، واحتوائه على أشياء لم يدونها إمام

الحرمين في موضع آخر ، وصرح في مقدمته فقال: «وقد صدرتها بقواعد في العقائد على أساليب لم أسبق إليها ، ثم اتبعتها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام» (ص٨) ، وبين أهمية موضوعاته فقال: «وأنا الآن أبدي سراً من أسرار التوحيد ، لو قوبل بكل ما يدخل في مقدور البشر ميسوراً لما كان له كفاء» (ص٤٤) ، وقال: «وها أنا أذكر نكتة يسعد من يعيها ، ويفوز الفوز الأكبر من يدريها ، فيا سعادة من أنعم فكره في هذا قليلاً ، ولم يتجاوزه حتى تنضجه الفكرة ، وتنقده يد السبر» (ص٢٩).

ويمتاز هذا الكتاب بأنه آخر كتب إمام الحرمين في العقيدة وأصول الدين ، وفيه خلاصة آراء إمام الحرمين ، وما استقر عليه ، وأنه ذكر كثيراً من الآراء المخالفة لما ذكر في «الشامل» و«الإرشاد» مما يدل على رجوعه إلى ما جاء في «العقيدة النظامية».

وجاءت تسمية الكتاب «بالنظامية» تسمية باسم الوزير نظام الملك في العهد السلجوقي الأول ، تقديراً له ، واعترافاً بفضله على المسلمين ، وتخليداً لذكره على الأعمال المجيدة التي قام بها من فتح المدارس النظامية في كل مدينة ، وتعيين كبار العلماء والفقهاء للتدريس فيها.

ويحتوي كتاب العقيدة النظامية على تمهيد من نقطتين: القول فيما تجب معرفته في قاعدة الدين ، وحدوث العالم ، ثم يبين إمام الحرمين خطة الكتاب بعنوان «فصل في ترتيب تراجم العقائد» وحصره في ثلاثة أبواب ، الأول في العلم بأحكام الإله وصفاته الجائزة والواجبة ، والباب الثاني في مناط التكليف من صفات العباد ، والباب الثالث في النبوات التي تتصل بها الأوامر التكليفية بالعباد ، وبها ترتبط الأمور السمعية والغيبيات في الحشر والنشر ، والوعد والوعيد المشعرين بالثواب والعقاب ، وغير ذلك «مما أنبأ به المرسلون ، وأخبر به الصادقون» ثم قال: «وتجتاز قواعد الدين مجاز هذه الأبواب ، ثم الإمامة ليست من

العقائد ، ولو غفل عنها المرء لم تضره ، ولكن جرى الرسم باختتام علم التوحيد بها ، ونحن نذكر طرفاً منها» (ص١٣) ، ويظهر أنه عدل عن هذا الوعد ، وخصص هذا الموضوع بكتاب مستقل ، وهو كتابه القيم العظيم ، الفريد في نوعه ، الذي طبع حديثاً ولأول مرة «**غياث الأمم في التياث الظلم**» .

٥ ـ كتاب أسماء الله الحسنى :

وهو كتاب يدل اسمه وعنوانه على مضمونه ، ويتناول بالتفصيل أسماء الله التي ذكرها باختصار في الكتب السابقة ، وهي الأسماء التي تثبت سماعاً بالنص ، مع بيان معنى كل اسم ، وهذا الكتاب يغطي أحد موضوعات العقيدة وأصول الدين ، ولكنه ينحصر في الجانب النقلي والسماعي ، ولا مجال فيه للعقل والاجتهاد .

ويوجد نسخة خطية لهذا الكتاب بالخزانة الملكية بالرباط ، برقم ٨٠٩٨ ، وتقع في ١٨٩ صفحة ، مع بياض في عدد من الأسطر في الصفحات الأولى والأخيرة .

ويظن أن هذا الكتاب ليس لإمام الحرمين ، وإنما هو لوالده الشيخ أبي محمد الجويني ، وهذا لا يستبعد ، ولكن إمام الحرمين جاء على جميع كتب والده ، وأعاد النظر فيها ، وعدلها ونقحها ، فنسبت إليه .

٦ ـ مسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها :

وتتضمن هذه المسائل أجوبة إمام الحرمين عن حدوث العالم ، وذهول بعض العوام عن وجه الدلالة على صدق الأنبياء ، وعن المثلين والأعراض ، والمنجمين والمعجزات ، ومعنى تمثيل جبريل ، وقدرة الله تعالى على كل شيء .

ويوجد لهذه المسائل نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١١ فقه مالك ، واهتم بدراستها الأستاذ الإيطالي الدكتور امبرتو ريزيتانو

الأستاذ بجامعتي روما بإيطاليا وعين شمس بمصر سنة ١٩٥٣م.

٧ ـ شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل:

ويتضمن هذا الكتاب النصوص التي وردت في التوراة والإنجيل بإثبات البشارة بالرسول محمد بن عبد الله ﷺ، وما وقع في هذه النصوص، وفي غيرها من نصوص التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل، وهو ما ذكره القرآن الكريم بنص قطعي.

ويوجد لهذا الكتاب نسختان مخطوطتان بمكتبة آيا صوفيا برقم ٢٢٤٦، ٢٢٤٧، ويوجد له نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٥٩ فيلم.

٨ ـ **مختصر الإرشاد للباقلاني**: اختصره إمام الحرمين، ولعله أول كتبه في أصول الدين، ويوجد منه نسخة مخطوطة بجامعة الدول العربية برقم ٢١١ علم الكلام، ونسخة بالميكرو فيلم أيضاً ويشكك بعض العلماء بنسبة هذا الكتاب لإمام الحرمين، لأن الباقلاني اختصر كتابه الإرشاد بنفسه، ويحتمل أن يكون إمام الحرمين قد اختصره أيضاً بعد الباقلاني.

١٠ ـ **رسالة في أصول الدين**، ويوجد منها نسخة مخطوطة في باريس برقم ٦٧٢، ضمن مجموعة رسائل، كما يوجد نسخة مخطوطة بعنوان «رسالة في التوحيد» بدار الكتب المصرية برقم ٩٤٠ لإمام الحرمين.

١١ ـ **مدارك العقول**، وهو كتاب في المعرفة وأصول الدين، ويظهر أن إمام الحرمين شرع فيه في نهاية حياته، كما أشار إليه بنفسه في كتابه «غياث الأمم» (ص٣٧٩)، الذي كتبه في أخريات حياته، ووعد فيه أنه سيكتب كتاباً مفصلاً عن «مدارك العقول» ولكنه لم يتمه كما صرح به

حاجي خليفة ، وابن خلكان[1] ، ولا يوجد لهذا الكتاب ذكر في الفهارس العامة والمخطوطات والمكتبات.

١٢ ـ **الكرامات**، وهو كتاب ذكره إمام الحرمين في كتابه «العقيدة النظامية» (ص٥٢) في فصل الكرامات: «وقد كثر خبط الناس في إثباتها ونفيها ، وقد ألفت في إثباتها والرد على منكريها كتاباً ، وأنا الآن أذكر لبابه» ، ولم يعثر على أثر لهذا الكتاب حتى اليوم.

١٣ ـ **رسالة في إثبات الاستواء والفوقية** ، وتنزيه الباري جل وعلا عن الحصر والتمثيل والكيفية ، ويوجد لهذه الرسالة نسخة مخطوطة بالموصل برقم ١٠٣٥ ، والثابت أن هذه الرسالة لوالده الشيخ أبي محمد الجويني ، وقد نشرها الشيخ المرحوم منير الدمشقي في رسائله المعروفة ، وقد يكون نسبتها لإمام الحرمين ، لما قام من تعديل وتنقيح لجميع كتب والده[2].

تقييم آراء إمام الحرمين في أصول الدين

كان إمام الحرمين من أعلام القرن الخامس الهجري ، وقد حمل على عاتقه واجب الأمانة العلمية والتبليغ والدعوة والتدريس ، وكرس حياته في دراسة العلوم الشرعية والمعارف السائدة في زمانه ، وبالغ في دراسة علم الكلام وأصول الدين ، وصنف فيه الكتب الكثيرة ، وخاض المناظرات الدائمة ، وكان يقول: «لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها ، وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم ، وخضت في الذي نهى أهل الإسلام عنها ، كل ذلك في طلب الحق ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن

---

(١) انظر: كشف الظنون ١/ ٨٧ ، ٢/ ٤٠٩ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣٤٢ ، الكافية ص ٢٣ ، الجويني ص ٨٥.

(٢) الرسائل المنيرية ١/ ١٧٤ وما بعدها.

رجعت عن الكل إلى كلمة الحق : عليكم بدين العجائز»(١) .

وكان الأشاعرة يحملون لواء الدفاع عن الإسلام ، وعقائد المسلمين في ذلك العصر ويمثلون مذهب أهل السنة والجماعة ، وتوسطوا في الأسلوب والوسائل بين تطرف المعتزلة وبين أهل الظاهر وبعض العلماء الذين آثروا السلامة في الصراع الفكري ، والتزموا جادة النصوص والأدلة النقلية ، ورفضوا الخوض في الجدال والمناظرة ، بينما حمل الأشاعرة الدعوة الرشيدة ، وتصدوا لشطط المعتزلة ، ووقفوا في وجه الفلسفات الوافدة ، والانحرافات المتعمدة ، والشبه المنتشرة ، وانخرط إمام الحرمين في مدرسة الأشاعرة ، وسار في كتبه وتدريسه على طريقتهم ، حتى صار شيخ الأشعرية وإمام المتكلمين في عصره ، وأصبح علم الكلام عند الجويني بحراً لا ساحل له ، وبلغ فيه المرتبة العليا ، والمكانة السامية دراسة وبحثاً وتأليفاً ومناظرة وتدريساً ، ثم انتقل هذا العلم عن طريقه إلى تلميذه النابغة المشهور ، فيلسوف المسلمين ، وحجة الإسلام ، الإمام الغزالي الذي نقل آراء إمام الحرمين ونشرها بأقواله وكتاباته .

ولم يكن إمام الحرمين مجرد ناقل لآراء المذهب الأشعري ، بل كان يتمتع بشخصية مستقلة ، واجتهادات كثيرة فيما لم يرد فيه نص ، وكان يحلل الآراء وينقدها ، ليقبل ما يراه حقاً ، ويرفض ما يراه باطلاً ، مما يعتبر تجديداً في المذهب ، لا تقليداً فيه ، ويستخدم الجدل في المناقشة ، ويرجع إلى العقل في فهم النصوص القرآنية ، فاعتبرت كتبه بداية عصر جديد في علم الكلام من ناحية الأسلوب والعرض والتحليل والاستنباط ، والجمع بين المنقول والمعقول ، وتقديم النصوص النقلية مقرونة بالحجج العقلية مما أوصله إلى آراء مستقلة ، واجتهادات فريدة ، وأقوال مبتكرة ، وهو ما دعاه لمخالفة بعض الآراء والأقوال لمذهب

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨٥ .

الأشاعرة ، وخاصة لإمام المذهب أبي الحسن الأشعري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني وبين ضعفها ، وقدم البديل الصحيح لها ، وحاول تأويلها بما يتفق مع منهجه في الدراسة والاستدلال ، وهذا ما دعا بعض العلماء إلى وصف إمام الحرمين بأنه «لم يكن أشعرياً ، لأنه يقول: فعل العبد بقدرة العبد مستقلة ، ولا كسب ، فلهذا كانت نسبته إليهم دعوى ، وله كلام في إثبات القدرة ، وتضعيف قول الأشعرية[1].

والواقع أن إمام الحرمين من أئمة الأشعرية ، مع الشخصية المستقلة ، والتجديد في الأسلوب والعرض ، والاجتهاد في الآراء والأقوال ، مما أوصله إلى مخالفتهم في بعض الأحيان دون أن يخرج عنهم.

وكانت شخصية إمام الحرمين الواعية ، الفذة ، المتحررة ، الناقدة ، المجتهدة ، سمة له في حياته العلمية ، وفي تأليفه وبحثه ، وفي تدريسه وتعليمه ، وله آراء خاصة واجتهادات مستقلة في الفقه وأصول الفقه خالف فيها الإمام الشافعي أحياناً ، وأبا الحسن الأشعري أحياناً أخرى ، والقاضي أبي بكر الباقلاني في أحيان كثيرة[2].

وهذه الشخصية الفريدة لإمام الحرمين أدت إلى إقبال العلماء على كتبه وآثاره ، وتمحيص آرائه وأقواله واجتهاداته ، سواء من قبل الموافقين له والمخالفين على حد سواء ، وتتبع العلماء آراءه ، وأحصوا عليه بعض الأخطاء والآراء الشاذة التي خالف فيها النصوص الشرعية ، أو خالف فيها المذهب الأشعري أو خرج فيها ظاهراً على إجماع المسلمين ، وحرص آخرون على التقاط الأخطاء ، أو تصيد العيوب ، مما حملهم على تأويل بعض نصوصه ، أو فهمها فهماً معيناً ، ومن أشهر المسائل التي أثيرت على إمام الحرمين مسألة الاسترسال ، وتعني عدم علم الله تعالى في

---

(١) انظر: تراجم الرجال ، الجنداري ص ١٩ ، الجويني ص ١٢٣ وما بعدها.
(٢) انظر فهرس هذه المسائل في آخر كتابه البرهان ٢/١٤٤٣.

الجزئيات والتفاصيل ، وأن علمه ينحصر في الكليات والعموميات ، وقد وردت هذه المسألة في كتابه «البرهان في أصول الفقه» (ص١٤٥) وتمسك بها شارح «البرهان» الإمام المازري الملكي ، وشنع على إمام الحرمين ، ثم شاع هذا الاتهام عليه ، لكن أكثر العلماء ردوا هذه الاتهامات ، وخاصة مسألة الاسترسال ، وأفردها ابن السبكي بالمناقشة ، وكشف أن المازري وغيره لم يفهموا كلام إمام الحرمين في البرهان ، وأنهم حملوه على غير حقيقته ويلخص ابن السبكي وغيره الجواب: إن إمام الحرمين بحث هذا الموضوع بوضوح تام في كتبه في علم الكلام وأصول الدين كالشامل والإرشاد والعقيدة النظامية ، وأن رأيه صريح فيها ، بأن علم الله يحيط بالجزئيات ، وهذا أمر مفروغ منه ، وأصل مقرر في العقيدة ، ويكفر من يخالفه ، فقال في «الشامل»: «إن الرب سبحانه وتعالى عالم بالمعلومات على تفاصيلها ، متعال عن العلم بها على الجملة ، إذا العلم بالجملة يقارن الجهل بالتفصيل ويقول: «الدلالة دلت على وجوب كون القديم عالماً بجميع المعلومات» (ص١٤٧).

ومن الآراء التي أثيرت على إمام الحرمين قوله في صفات الله تعالى التي وردت في القرآن ، كاليد والعين والاستواء ، بالتأويل ، ثم رجع عن هذا الرأي في آخر كتبه إلى قول السلف بالتفويض ، وهذا ما صرح به في «العقيدة النظامية ص ٢٣» ، فقال: «قد اختلفت مسالك العلماء في الظاهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها ، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في كل الكتاب ، وفيما صح من سنن النبي ﷺ وذهبت أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب ، والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع ، وترك الابتداع ، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ،

وقد درج صحب النبي ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة» .

ومما ينقله كثير من العلماء أن الجويني رجع عن رأيه في علم الكلام ، وأنه ندم على اشتغاله به ، وأنه قال عند تناثر أسنانه في مرض موته : «هذه عقوبة اشتغالي بالكلام ، فاحذروه» ، وأنه قال : «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو علمت أن الكلام يبلغ إلى ما بلغ ما اشتغلت به» ، وأنه قال أيضاً : «والآن رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف بره ، وإلا فالويل لابن الجويني ، يريد نفسه»[1] .

ويحاول بعض العلماء استغلال هذه الأقوال للهجوم على علم الكلام والتحذير من تعلمه ودراسته ، وتحريم الاطلاع عليه ، واعتباره من العلوم الضارة الدخيلة على المسلمين ، وهذا مبالغة في القول ، والمسألة محتملة ، وقال ابن السبكي : «يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة»[2] .

ونختم الكلام عن كتب إمام الحرمين في أصول الدين وعلم الكلام بالملاحظتين التاليتين :

١ ـ إن علم الكلام عامة ، وكتب إمام الحرمين خاصة ، تصور لنا الحركة العلمية والفكرية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وتشرح لنا المعركة المحتدمة بين أهل السنة والجماعة ودعاة الإسلام عامة وأئمة الدين من جهة ، وبين المعتزلة وبقية المذاهب الكلامية والفرق الدينية والتيارات الفلسفية الهدامة من جهة أخرى ، وأن علماء الكلام من الأشعرية والماتريدية وغيرهم دونوا لنا حجج الدفاع عن العقيدة والدين ،

---

(١) انظر : المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٩ وما بعدها ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٢١ ، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/ ١٨٥ .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨٦ .

بالاعتماد على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وأقوال السلف ، مع الأدلة العقلية والأساليب الفلسفية والطرق المنطقية لمقابلة الخصوم بنفس الأسلحة التي يحارب بها الإسلام والمسلمون ، وأما علم الكلام والفلسفة المقتصر على البحث النظري ، والمنطق اليوناني ، والفلسفة الرومانية فهو مرفوض ، وصرح السيوطي بتحريمه ، فقال: «ولست أعني علم الكلام ، وهو ما ينصب فيه الأدلة العقلية ، وتنقل فيه أقوال الفلاسفة ، فذاك حرام بإجماع السلف ، نص عليه الشافعي رحمه الله تعالى»[1].

وأما الآراء التي تتبعها العلماء على إمام الحرمين فهي قليلة ومحصورة ، وإن سلمنا جدلاً بخطئه فهي في مجال الاجتهاد الذي يؤجر صاحبه ، ولو أخطأ ، وإن إمام الحرمين لم يكن معصوماً ، ولم يدَّع العصمة لنفسه ، ولا دعاها له أحد ، ولكن يقال فيها: «كفى المرء فضلاً أن تعدَّ معايبه».

٢ ـ إن علم الكلام كان مجرد سلاح ووسيلة في أيدي العلماء والدعاة في ذلك العصر ، وقد أحسنوا استخدامه ، وحققوا النصر والظفر به على أعداء الدين ، وهو علم مشحون بالأدلة والوسائل والأساليب التي يمكن الاطلاع عليها في عصرنا الحاضر ، مع الاستفادة منها ، بشرط عدم الوقوف عندها وبشرط التخلي عن مصطلحاتها الفلسفية القديمة كالجوهر والعرض والجرم والجزئي إلا لمختص ، ويجب تجاوز ذلك إلى الأسلحة العصرية ، والوسائل المتقدمة ، للقيام بنفس الواجب ، وتحمل العبء والمسؤولية والثبات على المبدأ الإسلامي ، وأداء أمانة الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، ففي مجال العقيدة والإيمان مثلاً ، يمكن ، بل يجب ، استخدام العلم الحديث ، والمكتشفات والاختراعات ، للاستدلال به

---

(١) انظر: إتمام الدراية لقراء النقاية ، للسيوطي ص ٣ على هامش مفتاح العلوم للسكاكي.

على صحة العقائد الإسلامية أمام أعدائها، وتثبيت الإيمان بين المسلمين، وفي مجال الفقه والتشريع والأحكام ، يمكن ، بل يجب ، دراسة الأنظمة المعاصرة ، والقوانين السائدة في العالم ، بل والمفروض ، على أعناق المسلمين ، والمطبقة في بلادهم ، شاؤوا أم أبوا ، طوعاً أو كرهاً ، للوصول إلى مقارنتها ـ ولو بالتنزل ـ مع الشريعة الغراء ، والأحكام الإلهية ، لبيان التفوق السامي للفقه الإسلامي ، والنجاح المحقق لأحكامه ، والميزات والخصائص التي يمتاز بها على بقية الشرائع والقوانين الوضعية ، لدعوة الناس إلى تطبيق شريعة الله ، والرجوع إليها ، والالتزام فيها.

وإن تراجع إمام الحرمين وغيره عن علم الكلام في ذلك العصر لا يعني فساد هذا العلم وفشله ، وإنما يؤكد أمراً واقعياً ومحتماً ، وهو أنه مجرد وسيلة وسلاح ، لا يعتمد عليه إلا أثناء المعركة الفكرية ، ومواجهة الأعداء ، والمجادلة والمناظرة ، والمحاجة والصدام ، وكل من تقدم في السن ، وبلغ الشيخوخة ، فلا بدَّ أن ينسحب من المعركة ، ويسقط السلاح من يده ، ويتخلى عن السهام والأسنة ، ويرجع إلى الهدف المقصود ، ويقف عند الغاية ، وهي العقيدة الدينية الصافية التي تقوم على السماحة والبساطة ، والوضوح واليقين ، مما لا تحتاج إلى أدلة وحجج أو استدلال ومنطق ، أو فلسفة وبيان ، هذه العقيدة التي يدركها الأمي ، ويتثبت بها الكبير والصغير ، ويقف عندها كل من اختلى إلى نفسه ، وفكر في ذاته ، واستأنس بكتاب ربه ، وسنة نبيه ﷺ، لترسخ في القلب كالجبال الراسيات، لا تحركها رياح ، ولا تزعزعها عواصف ، وهي العقيدة التي سماها إمام الحرمين وغيره: «دين العجائز» وهي عقيدة تحمل النور في طياتها ، وتهدي العاقل إلى صفائها، وتشق الطريق إلى القلب والنفس بذاتها متى سلم السائر من غوايات الإنس والجن، وتجنب الوعر، ونجا من شباك الشياطين، ودعامة الضلال والانحراف، وهي التي

وصفها القرآن الكريم بقوله تعالى: : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ[1] وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) انظر كلام الشوكاني في مذهب السلف في (الرسائل المنيرية ٢/ ٨٤).